

# الاتجاه الإستشراقي في الشعر الحديث

د. عبده بدوي

(١)

النور كان في الأساس عاملاً مؤثراً في البيئة العربية المكشوفة من قديم، ومن الطبيعي أن هذا النور كان مرتبطاً بالشمس أكثر منه ارتباطاً بالقمر والنجوم والبرق ومن الطبيعي أن ضوء الشمس حين يكون قوياً يميل الناس إلى تفضيل الألوان الزاهية والدافئة، وبالتالي يفضل الناس الألوان الباردة والحامدة حين يكون النور ضعيفاً، ومن قديم ارتبط الناس أشد الارتباط بالمونين المتناقضين المتمثلين في الأبيض والأسود، والنور الأبيض كان رمزاً للصفاء والنقاء والوضوح والجمال، ولهذا كان المسيح يمثل علامة في ثوب أبيض، ومثل هذا لآله الرومان، واختاره المسلمون للحج والعصرة وكفن الميت، كما استخدمه القرآن الكريم رمزاً للقور في الآخرة.

وقد كثرت هذا اللون في اللغة من باب التفلين، فقد أطلقوه على الماء والشحم واللبن، وقالوا: الأبيضان للماء والحنطة، والخبز والماء، والشحم والشباب، ووصفوا به الأرض إذا كانت ملساء لا نبات فيها، والجلد إذا كان بغير شعر، كما استخدموا الأبيض في مقام المدح بالكرم والجمال ونقاء الوجه، وقد تعرض ابن سبلة في معجمه المخصص للألوان الثلاثة: الأبيض والأسود والأحمر، كما تعرض النعماني في كتابه «الملصع» للألوان الخمسة الرئيسة وهي الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر، ثم كان رده الألوان لواحد من هذه الخمسة، كما أن ابن حزم في رسالة الألوان تكلم عن الألوان باستفاضة، وإن كان قد مال لأسباب خاصة إلى «الشقرة»، فقد قال: «... وعني أخبرك أن أحببت في صباي جارية لي شفاء الشعر، لما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه حل الشمس، أو حل صورة الحسن نفسه، ولبي لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا نقوليني نفسي على سواء، ولا أحب غير البتة، وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه<sup>(١)</sup>».

(٢)

واستداه فالشمس قد غابت على الشعر الجاهلي ، فمساحتها فيه أكثر من مساحة القمر على حد ما نعرف من شعر المعلقات ، ومن شعر كثير من الشعراء .

ويبدو أن للشمس الحظ الأوفى عند العرب ، ومن آيات ذلك كثرة الأسماء التي تشير إلى الشمس مثل عبد شمس ، امرئ الشمس ، وعبد الشارق ، وتلبية بعض القبائل للشمس<sup>(١٢)</sup> .

وحين جاء الإسلام رأينا أشياء كثيرة شبيح في النور ، وبخاصة في القرآن ، فلي نعرف أن الله نور : الله نور السموات والأرض . سورة النور : ٣٥ ، والرسول نور : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ والإسلام نور : وكلفك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً ، الشورى : ٥٢ ، كما أننا نعرف به الواقيت : أقسم الصلاة لسورك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً . الإسراء : ٧٨ ، وما أكثر ما أقسم الله بالنور ، ولشأن أسماء السور الأتية : النور ، التمجيد ، القمر ، البروج ، الشمس ، الضحى ، العصر ، ومثل هذا نراه في الأحاديث المروية عن رسول الله<sup>(١٣)</sup> . بل إنه يروى أن الرسول تدخل في قصيدة كعب بن زهير حين جعل كلمة الله ، مكان كلمة الهند ، فالشاعر قال وهو يلقي قصيدته في أول الأمر :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهتد من سيف الهند مسلول

ومن ثم كان التركيز على الله ، وعلى البيضاء<sup>(١٤)</sup> ، على نحو ما نعرف من القرآن : هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، يونس : ٥ ، وقد تنبى القوطبي لطاهرة النور وبيضاءها ، فقال في تفسير «كُنْ فَيَكُونُ» الكفاف من الكينونة ، والنون من النور ، وما أكثر المحدثين الذين قالوا : إن الضوء مفتاح لفهم الكون .

(٣)

ثم كانت ظاهرة القول «بالنور المصعدي» ، فهناك من يرى أن نوره كان موجوداً قبل خلقه البشري ، اعتقاداً على الحديث الذي يقول : كنت نبياً وأدم بينطين ولما<sup>(١٥)</sup> وهناك رواية لأبي هريرة تقول : «حين مثل النبي متى جاءته النبوة قال : وأدم بين الروح والجسد»<sup>(١٦)</sup> ، ثم تتخذ النظرية بالقول إن في النبي جوهرًا نورانيًا قائمًا به قداماً حقيقياً واقصياً ، وضع أول ما وضع في جهة آدم<sup>(١٧)</sup> ، وتفصيل ذلك القول بأن الله آذن ملائكته أن يأتوا بقبضة تواب من أركان الأرض الأربعة ، ثم أمر جبريل أن يحضر إليه «القبضة البيضاء» ليخلق محمداً ، وكان أن جيء «بالقبضة البيضاء» فعمجت بهاء التسليم ، وورعت حتى صارت الدرة البيضاء ، ثم قصست في كل أنهار الجنة ، فلما أخرجت نظر إليها الله ، فانتضت فقطر منها مائة ألف قطرة ، وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فكان من كل قطرة نبي<sup>(١٨)</sup> .

وفي التفويحات الكلية نجد وقفة لها دلالة في هذا<sup>(١٩)</sup> .

ثم يرى أن من كرامة محمد أن جعل من أتباعه رسلاً وإن لم يوسلوا ، وهم على طبقات كثيرة ، وأحوال مختلفة ، منهم : «الأمطاب» ولا يكون منهم في الزمان إلا واحد ، وهو الغوث أيضاً ، ومنهم «الأنمة» ، ولا يزيدون في كل زمان على اثنين لا ثالث لهما ، ومنهم «الأوتاد» ، وقد يعبر عنهم بالرجال ، ومنهم «الأبدال» ،

## — عالم الفكر —

وهم سبعة، ومنهم «القباء»، ومنهم «الثنا عشر»، ومنهم «النجباء»، ومنهم «الحواريون»، ومنهم «الرجيون»، ومنهم «الحشم»<sup>(١١٠)</sup>.

وابن سبعين ينظر للنبي على أنه نور استأداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في جسمي، ونوراً في شجري... وتبع جوارحه كلها<sup>(١١١)</sup>.

وأخيراً فقد انتهى المصنف بالسهروردي<sup>(١١٢)</sup>، وهو القائل «بالحكماء المتألمين»، وهم أهل العرفان أو الفلسفة الإشراقية، وبأن الوحي لم ينقطع<sup>(١١٣)</sup>، ولا أحد ينسى دوره في الكلام عن رمز النور، فقد وصل إلى اتفاق عليها في هذا المجال، وركز على أن «إغوان التجريد» تشرف عليهم أنوار، وأن هذه الأنوار لها أصناف تصل إلى ثلاثة عشر صنفاً<sup>(١١٤)</sup>.

وقد تتحول الأنوار إلى ألوان كما يقرر الشيخ نجم الدين الكبرى، في فوائدها الجاهل وقوائم الجلال<sup>(١١٥)</sup>، من كل هذا نرى أن الأنوار في الحقيقة أنوار بضائر لا يصر، وأن الألوان انطلقت منها ألوان تنطلق بالحق للمتنصوف<sup>(١١٦)</sup>، وبالتالي للشاعر في حالات الاستغراق مما يجمعنا نحن في شعوره بالنور المتفرج، أو الثابت، أو المتوهج،... إلخ، كما نحس في أسلوبه الموسيقى الأثيرية، والبريق في الإيقاع، والشر في القافية، والانسجام أو التشظي في الجمل، ناهيك عن الحروف، والتظليل، والتوريق، والفرار والجواب... .

### (٤)

وقد اهتم الشيعة بهذه الفكرة وأكدها، وركزوا عليها، وبخاصة رواية المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجواهر، ثم تضيف الرواية على لسان جعفر الصادق و «انتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أيماننا، فلتحسن أنوار السياه وأنوار الأرض»<sup>(١١٧)</sup>.

وقد روي عن الإمام محمد الباقر - الإمام الشيعي الخامس - أنه قال في تفسير آية النور «المشكاة فيها مصباح» - يعني نور العلم في صدر النبي - «المصباح في زجاجة» - يعني بالزجاجة مصدر على - بمعنى علم النبي علماً علماً يوقد من شجرة مباركة هي نور العلم، ومن ذلك تأويلهم لقوله تعالى «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»<sup>(١١٨)</sup>.

ففي القلوب الأنوار على ما قسمه الله في الأول<sup>(١١٩)</sup>.

وهناك من يقول: إن محمداً هو نفس الأنبياء السابقين، استأداً إلى حديث أورده ابن سعد عن عكرمة عن ابن عباس: هذا تفسير لقوله تعالى «وتقلبك في الساجدين»، فالذي تبع للناس نبي واحد، عصراً بعد عصر، حتى ظهر في صورة محمد.

### (٥)

كثير الكلام في القرنين الأول والثاني المحجرين عن الفضا والمذهب والشبه والتجسيم، والتصريح والأجزاء، بالإضافة إلى التأويل الظاهري والباطني لكثير من آيات القرآن الكريم، ومعنى هذا أن ما كان في القرنين الأول والثاني كان تمهيداً للفلسفة الإشراقية التي استزج فيها التصوف والفلسفة، ويبدو أن هذه

## — عالم الفكر —

الفلسفة كانت محاولة لتفحص الإسلام السني، وكانت في الوقت نفسه اقترباً من التيار المادي، وكمل هذا وجدناه عند إخوان الصفا، والفارابي، وابن سينا، والسهوردي، وابن مسرّة، والحلاج، بالإضافة إلى ابن عربي الذي كان أكبر ممثل لها في الأندلس، وابن مبعين الصقلي، وقطب الدين الشهرزوري ونصير الدين الطوسي. وقد كانت للإشراقية مراحل تمثل في الآتي:

١ - مرحلة العبادة.

٢ - مرحلة الزهد.

٣ - مرحلة التصوف... مع ملاحظة أن ابن سينا يفضل مرحلة التصوف على الزهد والعبادة.<sup>(٢٢٠)</sup>

والإشراق أساساً اسم يعني السنا والبهاء، وإشراق الشمس عند طلوعها، وينطلق من اعتبار النور المبدأ الخالص والجذري للموجود، ومن هذا المبدأ تصدر سلسلة من الأنوار، تؤلف في مجموعها الموجودات الكونية، سواء منها التورية أو الظلمانية، ويذهب البعض إلى أنها كانت في الأساس مخططاً شعوبياً ضم مجموعة من المخاضين على الإسلام من مجوس ويهود وزنادقة، وقد أخذوا العهد على التلاميذ كما كان يفعل إخوان الصفا، وأوصوا بعدم إفاعة أسرار الحكمة الإشراقية، وأن يمشوا بها على الجبهة وعلى المبتدئين، ومن لم يبرز القطنه الوفاة، والمدرية المعتادة<sup>(٢٢١)</sup>.

وقد اصطلح فلاسفة الإشراق - وبخاصة ابن سينا<sup>(٢٢٢)</sup> على تسمية الاستغراق في الذات الإلهية - مع تجريد النفس حتى تترك ذاتها - بالفناء، وقال السهروردي بالنجلي التوري<sup>(٢٢٣)</sup>.

كما يقول إخوان الصفا: الله هو المعشوق الأول، والفلك إنما يدور شوقاً إليه<sup>(٢٢٤)</sup> وهذا المذهب يبدو مركباً من عناصر متباينة معقدة فهو يقوم بالانتقال من رتبة العقل إلى رتبة الروح، ويقول بالتسلسل التاريخي بدءاً من آدم للأتباء والفلاسفة، فهناك «الشجرة الإلهية» على حدة تعبير السهروردي، وهناك القول بأن وجود الأشياء مسبوق بالمعاني العليا، وهذه المعاني هي ما يعني «النور القاهرة» الذي لا يمكن إثباته بالبرهان العقلي إلا لخللاء الذين سلخوا عن هياكل أبدانهم مثل أفلاطون وهرمس.

وهذا النور هو الذي يولد «الحفرة الساطعة» ويمثل التجلي لموسى حين نُودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة<sup>(٢٢٥)</sup>، لينتقل من ربه حديثاً سريعاً، وهو الذي يقابل الآتي الوارد في القرآن<sup>(٢٢٦)</sup>، فالنور ما هو بذاته حاضر للمادة، أي ظاهر بنفسه لنفسه، ولا يحتاج ولا يمكنه أن يدرك ذاته بشيء، والله عنها، ومن الطبيعي أن يتولد عن إشعاع النور الأول ينابيع لا نهائية، ولقد كانت خطبة إلياس في تحفة النور معتقداً أنه يرى نور نفسه<sup>(٢٢٧)</sup>.

فالنور كلمة الله، على حد ما جاء في رسالة أصوات أجنحة جبرائيل للسهوردي: لله كلمات كبرى هي الأنوار الصادرة عن نوره، وجبرائيل أخوها، ونداء المؤذن - يزكي القلب بالصلاة - هو الباب الذي يدخل منه النور الشفيعاني، ومنه يتصل المؤمن بالحضرة الإلهية، ولهذا يقول الحلاج:

لأنوار نور النور في الخلق أنوارٌ      وللمسي في مسرّ المسرّين أنوارٌ

## عالم الفكر

فالإشراقية تجمع بين الفلسفة والتصوف ، وقد شبه صدر الدين الشيرازي الفرق بين العاملين الاستدلالي والإشراقي ، بالذي يعلم الخلوة بالوصف ، والذي يعرفها بالذوق ، فالثاني أقوى وأحكم وهو الإشراقي ، وقد شبه الإشراقيون الوجوه بالنور الذي يختلف مراتبه في الشدة والضعف ، فثتان عندهم بين نور الشمس ونور الشعلة<sup>(٢٨)</sup> .

والملاحظ أن الإشراقية قد اتصلت بالنشيع وتفاعلت معه ، وكان أن تفرعت عن المدرسة الإشراقية الطريقة «النورية» ومنها نعرف أن معرفتنا الحسية والعقلية مرتبطة بالأنوار العليا ، وعلى رأسها نور الأنوار ، بحيث تتم المعرفة بحضور إشراقي ، فكان حواسنا وقوتنا ما هي إلا «قوابل» لتلقي الإشراق من أعلى ، أو بمعنى آخر ما هي إلا «هياكل» لظهور أثر الأنوار الإلهية في عالمنا ، وعلى كل فالإشراقيون لا يتكلمون بمرهم دون «سوانح نورية» ، فإذا أردنا مثلاً فإنه يظهر في القول : إن القمر عاشق أبداً للشمس ، وإن الشمس تحرق كيانه - الذي هو بطبعه ظلمة - فإذا نظر العاشق للسكون إلى نفسه ، لا يصير شيئاً إلا وجدته مخلوفاً بهذا النور ، وهنا يصبح : أنا الشمس .

فإذا أردنا مثلاً آخر نجده عند ابن الفارض الذي يقول :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سَكِرْنَا بها من قبل أن يُخْلَقَ الكرمُ . .  
لها البدرُ كأسٌ ، وهي شمسٌ يديرها هلالٌ . . وكَمْ يبدو إذا مَرَّ جَسَتْ نجم

فالشمس التي يشبهها مدامة الحب السرية هذه هي ذات الإله الأخدية ، وأما نغير كأس هذه المدامة التي هي بشر الذات العنصرية ، وأن الهلال الذي كان يدير الكأس في حلقة الضيوف هو «علي» ، الذي هو بالنسبة إلى محمد كسبة لجلال إلى البدر ، ويصب «علي» نور الحقيقة على أقطاب الصوفية فكلين هم ضيوف المائدة الربانية الشار إليها بالنجوم ومن<sup>(٢٩)</sup> ، فهناك تناظر بين «قام القباسة» عند الشيعة وبين القطب عند الصوفية ، مع ميل الشيعة للتجسيم والتشبيه ، وتركيز الصوفية على ظاهرة «التجلي» .

(٦)

كان من الطبيعي أن تقلل الكثير من آراء الإشراقيين بالتمسك ، فقد تصدى لهم أهل السنة في أكثر من قضية ، وقد كان في مقدمة أهل السنة «ابن تيمية» ، فقد رد على السليبي يقولون : إن النبي عليه الصلاة والسلام كان موجوداً من الأزل دون غيره من الأنبياء ، وكذلك ما يسمى خاتم الأنبياء ، فقد قال فيما قال : هذا كذب واضح مخالف لإجماع أئمة الدين ، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد ، فإن الله عليم الأشياء وقدرها قبل أن يُكَلِّمَهَا ، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم<sup>(٣٠)</sup> ، كما أنه رفض قولهم بأن المتصوف متى بلغ درجة الاتحاد فإنه يقوم بالأعمال الخارقة ، لأن هذا يهدم فكرة تميز المرسل بالمعجزات ، وعلى حد تعبيره : هذه الأفكار من جنس الطامات لأن حال البقاء أكمل من الغناء ، وهذا حال الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، فلو كانت تلك الحال أكمل لكان من لم يرسل أكمل من المرسل<sup>(٣١)</sup> .

كما أن هناك من كفر «الثنائية» لقولها : إن النور والظلمة قديمان مازالا ، ومن كفر «الدينامية» لإثباتها عالمين قديمين : عالم في العلو ، وعالم في السفلى غير عالما هذا<sup>(٣٢)</sup> هذا إلى جانب وجود آخرين هامين في هذه المسيرة وهما : الأفلوطينية المحدث ، أو بعبارة أخرى مذهب «أفلوطين» وأتباعه ، بالإضافة إلى تأثير النورانية ، وفلسفة النور على وجه الخصوص في الفارسية القديمة .

(٧)

على افتراق الفلسفة بالتصوف فترة كبيرة، ولكن شيئاً فشيئاً غلبت الفلسفة عن التصوف (٣٣)، ويمكن  
لإدهار لمرحلة وجود «الْقَلْب» في العالم العربي الإسلامي، وفي القرن الثامن عشر انتقل المذهب الإشراقي إلى  
فرنسا عن طريق المصافى الماسونية، التي كان لها في نهاية القرن دور تصوفي أكثر مما كان لها دور سياسي،  
ولعل مما ساعد على هذا ضعف المسيحية في هذه الفترة، وعلى كسل فقدتها تياراً يرى أن عالم الحس ليس إلا  
واجهة مربية لعالم سرّي، وهذا العالم السري يمكن الكشف عنه «بالمراسلات» التي لا يستطيع قراءتها غير  
العارفين والمريدن، وهكذا كانت هناك رغبة في تجاوز الحس إلى عالم خفي حوّل للأشياء، وإلى البحث عن  
الغناء، والكشف عن المجهول، ففوق العالم المشاهد واقع آخر هو الله، وهو الاقتراب من الله، وهذا الواقع  
الجديد يمكن «استشفافه» بالمراسلات والتداعيات السرية، ومعنى هذا ألا ترى العالم كما هو، لأنه لابد من  
نظرة جديدة، ومن معنى آخر يُوقظنا ويُعَدُّنا للدهشة، كتفاحة المصون «برك» التي لم تخلق للأكل، وإنما  
لكشف شيء لا يرى، وبالتالي للوصول إلى العالم السري غير المنظور، فالملطوب ليس تسجيل الإحساسات  
النادرة، وإنما كشفها، والوصول إلى فلاحتها السحرية (٣٤) . . .

وبعد فترة دخلت عملية الإشراق في طريقة الإبداع فلك لأن عملية التفكير المبدع لم يمر بأمر لا بد منها،  
وهذه المراحل هي ما يأتي :

١ - الإعداد.

٢ - الحضانة.

٣ - الإشراق . . . يظهر فجأة بعد مرحلة الحضانة، ويسمى مرحلة الإشراق Illumination أو  
الإلهام inspiration بمعنى إعادة تنظيم المعلومات، والتخلص من الأفكار الخاطئة، وراحة الذهن وصفاته  
لتخطيه مرحلتَي الإعداد والحضانة، فكل هذا يؤدي إلى ظهور الأفكار الجديدة المبدعة، التي تشبه في الظهور  
المفاجيء عملية «الاستبصار» . . . ثم تنتهي الرحلة بعد إشراق الفكرة، أو حدوث الإلهام بمرحلة أخيرة  
تسمى مرحلة التحقيق، وهي تشبه عند الفنان مرحلة الصقل، وهكذا يكون الإشراق هو الومضة العظمية  
الشفائية التي لا يؤثر عليها بجهد إرادي مباشر، والتي تكون ذروة المراحل تسبقها (٣٥).

(٨)

في العصر الحديث ظهر اندثار «الإشراقية» القائمة على عتاق التصوف بالفلسفة، وشيئاً فشيئاً - من واقع  
الحضارة العربية - تأكيد «الحُدُس» قبل «الإحساس» في القصيدة، وترتب على هذا أن تكون مدركات  
الإشراقية مجرد مكعبات جمالية بعيداً عن الفلسفة، فكل ما جاء في هذه الفترة كان يُعتمد أكثر ما يعتمد على  
التجريد، والحدس، والجلال، ومخالفة الطبيعة، وفي الوقت نفسه كان التعامل مع «الكامل» على حد تعبير  
ابن الدباغ الذي يرى أن الإنسان السليم من الآفات يحبُّ الصور الحسنة، وأن الحواس التي هي رسل النفس  
لي الأجمال تستريح إلى ولاية الماء العسالي، والأزهار الموقنة، والأصوات السرحة، والنعيمات الموزونة، حتى أن  
إبراهيم لذة من هذه الأشياء تذهب الحزن، وتفرج القلب، وتبسط الأمل، وتسلي الحسوم، للمناسبة التي بين



## عالم الفكر

النفس وبين الاتحاد والصفاء والنور، ومضادة طبيعتها للظلمة والكدر<sup>(٣٧)</sup>، بالإضافة إلى ذلك اعتبار النور - ومن وراء اللون - وحدة جمالية تقف عند تزيين الشكل والمضمون، فالصورة الإلهية مشحونة أو مشبهة، وهي على حد تعبير أبي حيان التوحيدي، «تجلت بالوحدة، وثبتت بالدوام، ودامت بالوجود»<sup>(٣٨)</sup>.

أما الصورة المحمدية فيحكمها الجلال البشري، وبعبارة أخيرة نجد أن النور تجرّد جمالي بشري، على حد ما نعرف من البارودي الذي يقول:

ألا يبالي من كان نورا تجسداً فيفيض علينا بالنجم رواءه<sup>(٣٩)</sup>

أو قول شوقي:

الحق حجة هي الفسراء هيهات في خلق الصباح مرء

لا يطلبن الغاية الشعراء لو نال كنه جلالك الكبراء

آيت به سيناء والأسراء<sup>(٤٠)</sup>

وعلى نحو هذا جرى العقاد، والمازني، وشكري، وخليل مطران، وأبو شادي، الحمشري، وأبو ماضي... إلخ، وما أكثر ما تحدث نزار قباني عن الألوان، ومن بعض مفاهيم الشيعة.

### (٩)

وعلى كل فكرة النور - كالموسيقى - تتصل بقرينة النجوى في الحضارة، كما تتصل بحرث هام من مرتكزات المدرسة الانطباعية التي تعمل على تفتيت العالم بحيث يتحول إلى ضوء وألوان، وما يسمى «الشعر الميتافيزيقي» الذي يعتمد فيما يعتمد على الصراع بين الروح ومتطلبات الجسد، وإلى الرغبة العميقة في الحرية والانطلاق، والخشية من الموت والعقاب، بالإضافة إلى تهويل فكرة الشر للوصول إلى عالم مليء بالنور والخير، وإلى عالم الإنسان السريالي في الداخل، حيث يحاول الشاعر أن يجمع نقاط النور من داخله، بل وإلى ما يسمى طقوس اللغة المخيفة التي تشحن بأفكار وأحداث تفجرها، وتجعل لها ضوءاً، ويربطاً، وإلى التجارب في عدد من الأصوات اللغوية، بالإضافة إلى القول بأن هناك ألواناً للحروف الصوتية<sup>(٤١)</sup>، على نحو ما فعل رامبو<sup>(٤٢)</sup>، وما فعله ابن عربي<sup>(٤٣)</sup>، وإذا كان «الكسندر إليوت» قد ذكر أن إحساس الفنان بالنور هو في العصب من إبداعه، وأن أي تحول أسلوب عام في تصوير الضوء لابد أن يعكس تحولاً في الحضارة كلها، فإنه يعتبر جزءاً لا يتجزأ من المذهب الإشراقي، ولعل خير من بحثه في جانب التصوف حديثاً الشاعر «محمود حسن إسماعيل»، فإني أقراة لدواوينه: «الحاني الكوخ، هكذا أغني» «أين المهر» «نار وأصفاد، قاب قوسين، لأبد، غير الحقيقة... إلخ توضح لنا قصة الشاعر مع النور، وإهداء فمن أهم محاور معجمه الشعري كلمات: النور، النار، الصلاة، الغناء، الشراب، وما يدور في قلبك كل كلمة من هذه الكلمات من ألفاظ، سواء بطريق الترادف أو الاشتقاق، أو التضاد، أو غير ذلك من العلاقات اللغوية، فمن كبل هذا بصوغ الشاعر في تبتل وإخلاص صوفيين ملائح عالمه الشعري القريد<sup>(٤٤)</sup>... نلاحظ أن البطل الحقيقي في شعره هو النور، قاله عنه هو النور، «ألغي وأئت النور».

- إلهي رأيتك  
إلهي وفي كل شيء رأيتك  
تعاليت لم يبد شيء لعيني  
تعاليت ... لم تبق صوت بأذني  
ولكن نوراً بقلبي بطل  
ومن طيفه كل نور بهل  
هو النور في كل فج يسر  
هو النور  
في كل قلب حياة  
وفي كل وجه صلاة  
وظل لنور الإله<sup>(١١)</sup>

والشيء عنده «نور» على نحو ما ترى في قصائد: النور المهاجر، مع النور الأعظم حيث يقول:

يا أول نور  
سكب الله النور الأعظم من شفاهه  
يا أول نور  
كل النور نالقه منه، وجاب الكون على كفيه  
يا أول نور  
خفت إليه الروح القدس وكبر شوقاً بين يديه  
يا أول نور  
عطش الدنيا جفن عليه، وروى الخيرة من قدميه  
والدين عنده هو الضياء  
وديني الضياء الذي تشرين

ثم إن النور عنده هو زاد الرحلة، وحركة السير، وحادي التغيير، أما الهدف الأخير فلا يخرج عن كونه  
الامتزاج العميق بالنور، فالنور عنده هو الوسيلة وهو الغاية.

- زائدك النور  
وفي دربك يسبح الشعاع



## عالم الفكر

فانظري : - قالسر إن مِرَّتْ على قَبْدِ ذِراع

- قاب قوسين من النور فسيري

واحتكي كل مقام في الضمير

وانهي طيم المدى واحترقي

في اللظى الباقي على نار ونور

مرقي كل قناع والنظري

من حواشيه إلى الضوء الأسير

واذكري كل ظلام راسب

أَنفَسَتْ فيك أغلالُ الدهور

ثم إنه لا ينبغي أن تصافق مع من يسيء إلى النور وإلا حُنا أنفسنا ولا ينبغي أن نجعل النور جوداً لأنه حركة واتدفاع، ثم إنه سر بناء الحيلة، والأمل الوحيد للمعرفة، وهو غاية ليست بعدها غاية، ثم إنه يقدم بعض الفصائل ببعض القطرات الثرية، فهو يقدم قصيدة : من معبد الشمس بقفرة «طريقة مع صحوة الغياة في أطلال معبد يلتقي بأرض اليمن الخالدة»، وقصيدة : الوجه المسدود بعبارة «واستغلق عليه السر في وجه فاستجار بالله من ظلامه»، وقصيدة : النفس والخطيئة بجملة «وطئت نغني للغياء حتى فاتها الموعد»، وقصيدة : شاطئ «التوبة بقفرة» وثقت برؤسها لجة الظلام حتى دهمها الشاطئ بلا ماء ولا ضياء»، وقصيدة : صلاة الجهال بجملة «رب طهي السنون، وإيكن ما يكون»، كل شيء حيون، حين نرؤي ليل» ومن الملاحظ أن النور عنده يدخل في نسج العمل الفني، سواء أكانت المادة هي النور، أو الفجر، أو الشمس، أو الصفاء، أو البراءة، أو الظاء، ومن هنا نرى عنده «موزايكو» من قطع صغيرة متتابعة من النور، فهناك طريق الشمس، وصلاة الشمس، والشمس الكبرى، وازدحام النور، والزحف بالنور، والشعاع المؤمن، ويد الشمس، والأحلام المضادة، الغياة الذي يتغير وصحَب الرميض، والضوء المبحوح، والحادرة والمدمدم، والمؤرق.

وهذاك النفس التي تسمع أصدااء النور، والقمر الذي يغسل بالغياء ما لوته العصاة، وموقد الفجر، ثم إن الفجر في الوادي رسول الأشعة، وهكذا يتحول عنده كل شيء إلى نور، على نحو ما يقول في تسبيحة :

على الأرض نورٌ . - وفي الأفق نور

وفي كل قلب شعاعٌ يدور

ولحنٌ يسبح طي الصدور

ويستغفرُ الله من كل ذنب

ويدعوك يا رب . - أنت الملمني

ولبيك أنت الرحيم الغفور

وقد يقترب من فلسفة الوجود كما في قصيدة: أنا والسر-

أنا والنائي والحياة وسِرُّ  
في طوايا النفوس يخفيه برقع  
كلما سله شعاعي من الليل  
على موضع ، يداريه موضع  
لست في حيرة ، ولا في وقوف  
فمع الله نظري تتطلع  
كلما قر طائر ، حاصرته  
فأتاها من حالك الله يمشع  
هدأة . . . وانطلاقة  
وإذا النور على الدرب  
يَسْتَعْلُ ، وَيَسْطَعُ !

وإذا كان التنوير في الفترة الأولى من شعر الشاعر يرتبط بالنار، والوهج، والتمرد، والشخطي، بحيث نراه أحياناً «شهوة النار»، أو نجد قاسياً كأشد ما تكون القسوة كقوله:

الفجر قد داسا

بنوره أشلاء هذا القتام

فإننا نرى النور في الفترة الأخيرة من شعره فرحة غامرة تبشّر من خلالها الحياة، كما نراه بقاءه يَشْتَعِي على الضياع والزيوال.

- فأمسى بقاءها شعاع على اللّح فاب

ويومي شعاع جديد الأثاب

يشقُّ التراب

- فأتتني سِرّ الهوى سابع

في نور عَيْنِكَ فلا تسألني

- قالت : لقد غرب الشعاع

لقلت : ما غربت بشائعه وأنت بجاني

قالت : وكيف ؟

فقلت : أثبت قصيدة

بيضاء في قديم المباء الذائب

- والنور حبات ضحى ميثولة الغيباء

حول سجدته

- جاءت من الغار، من النور خطا «حمد»

- أوقدوا الشموع

أطفئوا الشموع

الضياء نور... والظلام نور

وأخيراً فقد أصغى نفس الضياء على قبر الإمام علي رضي الله عنه في زوارة للنجف عام ١٩٦٤ فكتب هذه التريسة، وألقاها في مهرجان الشعر بالكوكة مساء اليوم.

ونسأى مناساً للضياء فكثرت جفونى، وصلت للننداء خواطري

وذوئت قلبي في رحيق من السنا وعطرت من فجر الخلود قبائري

عرفت غير الظهر من كل ساجد ومن كل آواب، ومن كل فاكسر

ولي وجهها صوفية... لو تكلمت تكاثت حديث الظهر في كل خاطري

حشدت غير المتقين، وظهرهم وأشعلته رآد الضحى بتجاسري

إنه فيما يبدو كان أسيراً لتلك النظرة التراثية التي تقول: إن كل الأشياء نورٌ مصفى، وأن كل شيء مخلوق يعكس شيئاً من الله على قدر حجمه، وهذا ينقلنا إلى ما يسمى «بالتران من الحسي» عند الشاعر، وهو ربط عدد من الإدراكات الحسية بحيث تكون ناشئة من إحساسين أو أكثر... . وكثيراً ما يكون هذا في حالة ربط السمع بالبصر، وعمل كل فهو يشبه هنا الرسام «فومير» الذي كان يحب النور لذات النور، لا لما يمس هذا النور من أشياء، وهذا جاءت رسومها كلها ريانة بالنور، فالنور ليس وسيلة لله لكنه الله، والنور ليس أصبحاً يشير إلى الحب لأنه الحب، ومن هنا كان هذا النوع من التنوير عميقاً وزيئاً وثقل وحركة، وهذا ما نجده عند محمود حسن إسماعيل<sup>(١٥)</sup>، فالنور عنده يذكرنا بأنوار السهروردي الذي وصل بها إلى أربعة عشر صنفاً، وبخاصة هذه الأنواع التي يقول عنها: نور ثابت زمناً طويلاً، شديد القهر، يصحبه خدرٌ في الدماغ، ونور لامع في غلظتة عظيمة يُظهر مُشاهدة وإبصاراً، ونورٌ مبدؤه في ضوئه، وعند مبدئه يتخيل الإنسان كأن شيئاً ينهدم، ونورٌ مرائح يسلب النفس، ونورٌ يتخيل معه ثقل لا يكاد يطاق، ونورٌ معه قوة تحرك البدن حتى يكاد يقطع مفاصله... . وقد تحملهم هذه الأنوار فيمشون على الماء والخواء، هل أن الأمر لا يقف عند هذا العالم من الأسرار النورية، فذلك لأنه يوصلنا في الوقت نفسه إلى تلك المرحلة الملونة التي جلاها لجسم الدين الكبرى في «فوائح الجبال وفوائح الجلال» حين قال: وإذا شاهدت بين يديك فضاء واسعاً رحباً شامعاً، ومن فوقه هواء صافياً، وترى في نهاية النظر ألواناً كالخضرة والحمرة والصفرة والزرقة، فاعلم أن عبورك هذا الخواء إلى تلك الألوان، علامة حياة الهمة، والهمة معناها القدرة. فشعر محمود حسن إسماعيل في الفترة الأخيرة قد اقترب من هذا العالم... من كل هذا نصل إلى أن في شعره نوعاً من «السطوح» و«البريق»، ففي كل قصائده نجد أنواعاً متعددة من النور تترجح أو

تثبت، ثم ترسل الخيوط هنا وهناك، ولعلنا لا نذهب بعيداً إذا قلنا إنها تؤثر في أدواته الشعرية، فما أكثر ما نجد أمواجاً غزيرة من الموسيقى الأثيرية، وما أكثر ما نجد يربطاً في الإيقاع، وفي القافية، وفي فواصل الجمل، وقد نجد في بعض الأحيان الشرر المتطاير، والثقة الصوفي، ولعلّ الاقوال المسموعة الآن في الفن التشكيلي باسم «الكريستالية» يقرب ما أردنا أن نقوله في هذا المجال، وهذا نكون قد رأينا وجه الشاعر وفنه من خلال الجانب الصوفي من مذهب الإشراف، المهم أن اللامرئي بقدرته العظيمة، يعمل على كبت المرئي، وإن اللغة تقتضى بحسب ما يسبح في الكينونة.

(١٠)

فلماذا ذهبنا في التطبيق إلى مثال ثان نجدّه عند محمد القيثوري، فكل شيء فيه كان يدفعه دفعاً إلى الهجرة من عالمه الذي يعيش فيه، فهناك حاجز اللون، وهناك حاجز الوطن المغلوب على أمره، وهناك حاجز الثقافة المقصورة أساساً على الدين، بالإضافة إلى حاجز الفقر الذي يصرخ من حوله، وفي الوقت نفسه يعيش في عالم التصوف على النحو الذي نعرفه من أبيه الشيخ الطريقة الأسمرية الحامل وردعا وأوردها<sup>(١٦)</sup>، وبالفعل نراه يخلق له عالماً جديداً هو عالم الطريقة المعادل للمعالم الذي كان يعيش فيه. ولقد بدأ رحلته لحضياً من كل شيء، وعلى كل شيء، ومن هنا كان صراخه:

ولأن القدر السيد عبد بتاه

والنبوات مضله

والديانات تعلمه

.. كافرّاً بالسما والقضاء والقدر

فقد كان في هذه الفترة أسيراً للمهابة الجدلّية، ولم يتطوّر شعره لأنه سرعان ما قال في قصيدة الضعف:

ما بيدي أن أرطعك<sup>(١٧)</sup>

ولا به أن أضعك

أنت أليم ..

وأنا أحمل آلامي معك

وجائع ..

ومنهجني جوعها من جوعك

وأنت عار

وأنا .. ها أنذا عار معك

يا شعبي التائه ..

ما أضيعني، وأضيعك

.. هيهات أن يكون مبدع النجوم مبدعك  
أما ستمت تحت أقدام الدجى مضطجعك  
يا ليتني عاصفة قاصفة  
كي أسمعك

وإذا كان الصوفي هم أول من أشار إلى أن التجربة الروحية مثل المرحلة ، وأن التسمي وراء الحقيقة سعي مضن ، قد ينتهي إلى النهاية السعيدة ، وعلى حد تعبير واحد منهم : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا ، وكما يتحقق هذا في التجربة الصوفية ، فإنه ينطبق على القصيدة ، لأن الغاية منها هي الظفر بالنفس ، لها يكاد «السوار» أن يهبط حتى تسارع الذات إلى التأمل ، وسرعان ما تتم عملية انسلاخ ، وهذا ما رأته بالنسبة إلى الشاعر ، لأنه سرعان ما تجاوز الطريقة إلى عالم صوفي جديد ، لا يذكره بالعتامة والقنمة والصفاء ، ولقد كانت هذه الفترة هي الفترة التي قضها في بيروت ، فقد بدأ يتكلم عن عالم «الخلول».

ويحي .. وأنا أتلعنم نحوك يا مولاي  
أجسد أحزائي  
أجمرد قبك  
هل أنت أنا؟  
بذك الممدودة أم يدي الممدودة؟  
صوتك أم صوتي؟  
وببالغ في الاستغراق يقول :  
وكننت لا أحي  
كننت أنا التمثال والازميلي والخالق  
كننت أنا الصبوة والمعشوق والعاشق  
لما سرقت السر ذات ليلة  
من جبل الألفه الشاهق  
وعدت في سحني يا بيروت  
لأحذني أقمعة الوجوه والبيوت  
ورشة طقلية لرجل مبعوث (١٨)

وحين تسم «البغلة» ، ويتحقق رؤياه ، لراه إنساناً آخر ، يخلق بلا وجه ، ويرقص بلا ساق ، ويسبح في عالم جديد من «الوجد».

## عالم الفكر

في حضرة من أهوى  
عشت يا الأشواق  
خدقت بلا وجه  
ورقصت بلا ساق  
ورنحت برأباني  
وطبولي الأفاق  
عشقي يُفني عشقي  
وقناتي استغراق  
مملوكتك لكني  
سلطان العشاق<sup>(١١)</sup>

وقد بدأ مرثعاً من هذا العالم الجديد، ولكنه لا يملك إلا الاستسلام.

وها أنا وحدي في ظلامها  
أضجع في ضياعي  
أخاف أن تأخذني العربة  
من دراعي  
تأبطني ذراعي  
تأبطني ذراعي أ

ولكنه لم يملك إلا الاستغراق في هذا العالم حيث النساء ذوات المعاطف، والقبعات، وعقود الماس، وأشجار البلاء، وحيث إطلاقة يسوع، وخيانة يهوذا، وماذا يفعل إلا الاستغراق في هذا العالم فيقول:

الله للشاعر والنبى  
للعاشق والمعشوق  
للخالق... الخالق في دعائه  
لروعة المخلوق  
الله يا بيروت للجبل  
حين أضاء حجراً فحجراً  
ثم اشتعل



## عالم الفكر

وكيف أن الألوهية قد شغلت، فإن النبوة شغلت كذلك لأنه كان وحده في مقعد النظارة، يرتقب النبي والبطريرك، ثم تكون له وقفة مباشرة في «يوميات حاج إلى بيت الله الحرام»، فيبدأ يذكر قوافل المحتاج المثقلة بالوجد والحمام، والمردة: عليك الفضل السلام، ثم يتكلم عن عمود الضوء المنتصب من قبة الضريح حتى قبة السياه، وعن أصوات الثامن مرادة لييك لا شريك لك، وهو لا ينسى أمته المضاعفة، المتسكة بالحدود، والمهانة من اليهود، ثم يصرخ:

يا سيدي  
تعلم أن كان لنا مجد وضمينه  
بنه أنت، وهدمناه  
لا جمر في عظامنا ولا رماد  
الضعف والذلة عادة

يا سيدي  
علمتنا الحب  
فعلمتنا ثورة الإرادة  
إليك لنا  
ادع لنا

ثم تكون له إلانة بولي الله في الإسكندرية «ياقوت العرش»، فيذكر أن الدنيا لا يملكها من يملكها، وأن أغل أعاليها سادتها الفقراء، ثم يقيم موازنة بين أن تاج السلطان تقاحة، بيتها تاج الصوفي يضيء على سجادة فرش، ثم يقول:

صَيِّفْنِي يَا ياقوت العرش  
أن الموتى ليسوا هم  
هاتيك الموتى  
والراحة ليست  
هاتيك الراحة

وهو في القصيدتين الأخيرتين ينسباً بكارثة قادمة<sup>(٥٠)</sup>، ثم سره في «مقاطع فلسطينية» يدين الخيانة، والرجعية، فقد رأى نجمة إسرائيل فوق المشللة، وحوافر اليهود تدوس سقف المسجد الأقصى، وخوذات الجنود تنظّل المطران، والعباد والشهاس، وتركل القداس، ويغمض عليه على تدفق الأجراس، ثم إن خطر راشيل كان في كل مكان، فالشاعر قد روج بجزمة عام ١٩٦٧، وهو يمثل بالكلام، ولكن الكلام ليس مصرحاً به، ومن هنا كان لأبد من الرمز والأسطورة والقناع، فيقدم المؤسسة في حوار بين يديها وحشليم، وبين

اليومة والطاويس، ثم ينتهي بحقار القبور، ويعتاب الشرويش لأن كان يتصدر المسيرة.

وبصق الدرويش في جبهته وقال:

- وحين أغلقنا عليه خُصِبَ الثابوت

كان يقول الله ربي

الله حي لا يموت

.. مولاي لو أنك أبصرت جلال الله

لسارت الحياّل من خلفك والمباه!

ثم يقدم ثلاثة شهود على الحياة والقناعة، وينتهي إلى الساب المغلق، وإلى ابتسامة الأصيل، ثم ينتهي بالاعتذار.

معذرة... وألف ألف معذرة

للتصّب الأنيق فوق المقبرة

فاللوت كان الفجر

والطريق كانت مقبرة!

وهكذا كانت هجرتان للشاعر، ثم كانت العسكرة الأليمة، والبكاء الأليم.

(١١)

فإذا أردنا أن نتوسع في مجال التطبيق للإطالة على العالم الإشرافي، فإننا نستجد أن صلاح عبد الصبور بحياته وشعره يمكن أن يكون خطوة في هذا الطريق، ذلك لأنه كان حريصاً على الدخول في عالمي الفلسفة والتصوف، فقد شغل وهو في سنه السابعة بفكرة الإله، ومع أن الدكتور لويس عوض يراه شاعراً ميتافيزيقياً، إلا أنه يؤكد أنه اهتم بفكرة الله قبل أن يعرف كلمة الميتافيزيقيا، كمادة الأطفال حين يشغلون في سنه السابعة بمشكلة الموت والحياة، ويتعدد الأدیان، وبأحاديث الجنة والنار، والحلال والحرام، وفكرة الله لا يمكن الإفلات منها قط، ولعل هذا ما عنده كبير كجارو حين قال: إن الوجود البشري في جوهره مطلب ديني، وهو نفسه يلقي أكثر من ضوء على هذا العالم فيقول: كنت في صياي الأول متديناً أصمق التلدين، حتى أنسي أذكر ذات مرة أني أخذت أصلي ليلة كامشة، فطعمت في أن أصلي إلى المرتبة التي تحدث عنها بعض الصالحين، حين مخلوق قلوبهم من كل شيء إلا ذكر الله، بدأت صلاتي كما يبدأها المصل عادة، وذهني مشغول بمسائل الحياة المختلفة، ألتزم بالآيات، ثم جاهدت كي أصلي نفسي من كل فكرة عدا فكرة الله، ومازلت أصلي حتى كنت أن أنهارك إعياه، ودفع بي الإعياء والتركيز إلى حالة من الوجد حتى أنسي راعمت لنفسي ساعته أنني رأيت الله، وأذكر أن بعض أهلي أدركوني حتى لا يصيبي الجنون<sup>(١١)</sup>، لقد كان في هذه الفترة في الرابعة عشرة، ثم يضيف أنه كان دائم الركوع والسجود على حصير قديم، وأنه كان يدخل صلاته، وهو مستحضر قصة الرجل الصالح الذي حين كان يصلي لدغته ثعبان، ولكنه لم يتحرك حتى أنتم صلاته، وأنه

## عالم الفكر

اجتهد للوصول إلى تلك المسئلة العليا ، وأنه مازال في ركوع وسجود ، حتى رأى نفسه تصغر ركعة بعد ركعة ، وزوجه تشق تسلياً بعد تسليم ، ثم يقول : لم أقوم من إحدى سجدي ، فإذا لم أرى أمامي هالة من نور ، فبكاله أن يُغمى عليّ هلعاً وفزعاً ، أفكر - وقد كنت في ذلك الوقت فارتباكاً لبعض القرآن - قوله «وَعَزَّزَ مُوسَى صَعْقَهُ»<sup>(٥٢)</sup> ، ومع أنه خرج من هذه التجربة غاضباً ، ومتكراً أشد الإنكار ، ذلك لأنه تعرف بعد ذلك على بساط الداروينية بتلخيص سلامة موسى ، وحين عرف من ليشة صبيحة المُرعبة «إن الله قد مات» وهكذا انتهى إلى الطرف الآخر من الموضوع ، بل وأصبح يتزين بالإنكار ، ويجمع القرآن على هذا الإنكار من كل الفلسفات والأفكار التي كان يجمعها كيا يجمع المنهم أدلة الانهزام ، ولقد كان ثمرة هذا كله ديوانه الأول : الناس في بلاقي ، حيث تجد فيه قصة قرية ريفية تعيش تحت طغيان «فكرة الله»<sup>(٥٣)</sup> ، وبعد ذلك رأيناه يقترب برفق من عالمه القديم في أغنية إلى الله ، ولكن هذا الرفق لم يكن مشوباً بالتقوى ، وإنما كان مزيجاً من العتاب ، والتساؤل ، والمخاطبة من غير إجلال .

يا ربنا العظيم ، يا معلمي

يا ناسج الأحلام في العيون

يا زارع البقير والظنون

يا مرسل الآلام والأفراح والشجون

اخترت لي ،

لشد ما أوجعتني

ألم أخلص بعد ،

ألم ترى نسيتي ؟

الربك لي ، نسيتي

نسيتي

نسيتي<sup>(٥٤)</sup>

ذلك لأنه كان في مرحلة الانتقال من عبادة «المجتمع» إلى الاهتمام إلى عالم الإنسان ، ومن ثم نراه يقول :

وهل يرضيك أن أهووك يا حسبي لما تفتي

فلا تلقى سوى جيفة

تعالى الله أنت منحتنا هذا العذاب وهذه الآلام

لأنك حينما أبصرتنا لم تحل في غيبك

ويقول :

لا ، ليس غير أنت من يعينني للفارس القديم<sup>(٥٥)</sup>

## عالم الفكر

والإله الذي نعرفه له طابع إسلامي إلى حد ما، وقد ينساق وراء سيرة المسيح كيا في قصيدة «أنغية للششاء»<sup>(٢٧)</sup> وكيا في قصيدة حكاية قديمة<sup>(٢٨)</sup>

كان له أصحاب

عاهدوه في مساء حرته . . . .

ألا يسلموه للجنود

أو يتكروه عندما

يطلبه السلطان

فواحد أسلمه لقاء حفلة من النقود

ثم انتحر

وأخر أنكره ثلاثة قبل انبلاج الفجر

وبعد أن مات اطمأنت شفتاه

ثم مشى مُكرراً مفاخرأ بأنه رآه

وباسميه صار مباركاً مُعْتَدَا

وفي ملكرات الملك عجيب بن الخطيب التي تبدأ بقوله :

لم آخذ الملك بحد السيف ، بل ورثته

عن جدي السابع والعشرين (إن كان الزنا لم يتخلل في جدورنا)

يرى د . لويس عوض أن الجد الأهل الذي يتحدث عنه صلاح عبدالصبور ليس إلا الله الذي أوردت بنسطة الأرض ، وهذه الملكة ليست إلا «الهيوي» أو «الطبيعة» أو «علاء الكون»<sup>(٢٩)</sup> . . . أما موقفه من الرسول الذي يقول :

دُفِرَني . . دُفِرَني

زُفِرَني . . زُفِرَني

وخذيني بين يديك ، وقسميني ، فلا يجد

الصوت الإلهي طريقاً لصاخي أوغوي

فهو يجعله في مقابل آدم العصوي الذي عصى الأوامر الإلهية ، فيكون الحكم الحاسم «الخرج منها فإلك رجب»<sup>(٣٠)</sup> وحين يتعرض لمجرة الرسول في قصيدة «الخروج» التي تبدأ بقوله :

المخرج من مدينتي ، من مؤطني القديم

مطر حاً أنفأل حينئذ الأليم

أخرج كالبيم

لم الخبر واحدا من الصحاب

لكي يقدني بنفسه ، فكل ما أريد قتل نفسي الثقيلة

ولم أعاذر في الفرائض ، صاحبي بضلل الطلاب

فليس من بطليني سوى «أنا القديم»<sup>(٦٠)</sup>

فهو هنا يجعل للتعبئة مستويين ، مستوى مباشر هو التجربة الشخصية ، ومستوى آخر هو توثق الإنسان للتحرره وللحياة في مدينة النور<sup>(٦١)</sup>.

مدينة الصحو الذي يترعر بالأضواء

والشمس لا تفارق الظهيرة

مدينة الرؤى التي تشرب ضوءاً

مدينة الرؤى التي تفتح ضوءاً

وقد كان بالسبع الإعجاب بقول الرسول عليه الصلاة والسلام<sup>(٦٢)</sup> : «إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، والله لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » وما تلتذتتم بالنساء على الفراش ، وخرجتم إلى الصعدات تحمّلون إلى الله ، والله لو ددت أني شجرة تعضد ، والله لو ددت أني شجرة تعضد . . . وبعد جولة في الفلسفات والمواقف ، وبخاصة الفلسفة المادية التي كان قد اقترب منها اقترباً شديداً ، وبخاصة بعد التخرج من الجامعة عام ١٩٥١ ، تراءى يصيح في سلام مع الله - على حد تعبيره - ويؤمن بأن كل إضافة إلى خبرة الإنسانية أو دكاتها أو حساسيتها هي خطوة نحو الكمال ، أو هي خطوة نحو الله ، كما يؤمن أن غاية الوجود هي تغلب الخير على الشر من خلال الصراع الطويل المرير ، لكي يعود إلى براءته<sup>(٦٣)</sup> ، وقد كان هذا مدخلاً طبعياً للإحاطة على عالم التصوف ، وبخاصة حين أدرك أن علاقة الشاعر بالشعر كعلاقة الصوفي المحب بمحبته ، وأن الرحلة الحقيقية هي رحلة الشاعر إلى المعنى ، وليس رحلة المعنى إلى الشاعر ، لهذا كان من الضروري أن يتزع الحية من نفسه ، وأن يتجرد للشعر كتجرد الحاج .

أخرجت لك

على أواني عمّلك

ومثلها ولدت - عتير شُئلة الاحرام - قد خرجت لك

أسائل الزواد

عن أرضيك الغريبة الرهبة الأسرار

ولتأمل قوله في قصيدة الخروج

إن عذاب رحلتي طهارتي

والموت في الصحراء يعني القديم<sup>(٦٤)</sup>

وهو يربط بين النبي والشاعر والفيلسوف، لأن في كل واحد قس من الشعر، وما أكثر ما نراه يربط بين المسيح وبينه<sup>(٦٥)</sup>، وفي قصيدة الخروج نراه يوازي بين محمد وبينه<sup>(٦٦)</sup>، ومن هنا نراه في هذه القصة قارئاً للمع السراج الطوسي، وللرسالة القشيرية للقشيري، ودايماً بين «الخاطرة» وبين «السورة» الذي هو أدق في التعبير من «الحديث»، والذي يتبعه «الفعل» كما قال الصوفيون وعلى حد تعبيرهم «التسوين والتحكين»، ولكني يستقيم المصطلح الصوفي في تفسير الفن يجب أن تقرأ عبارة القشيري كالألي<sup>(٦٧)</sup>، «فما دام العبد في الطريق فهو صاحب التلويح، لأنه يوتقى من حال إلى حال، ويتنقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرتبة إلى مكان الرحيل) ويحصل في مزيج (محل الريح والريح) فلوفا وصل تمكن، وأشدوا».

ما رثك أزل من وذاك منزلاً تتخبر الألباب دون وصوله

وصاحب التلويح أبداً في الزيادة، وصاحب التحكين وصل ثم اتصل، وأما أنه الفصل، أنه بالكلية غلط<sup>(٦٨)</sup>، وأخيراً يلخص الفكرة بالحدث بين نفسه وبين الحلاج الذي حرج من زعمه إلى حقه، لأنه باع بعلاقته الحميمة بالله، فقد كان هو الآخر مزدهماً بالأسئلة، وكان يسأل نفسه نفس السؤال الذي سأل الحلاج نفسه: ماذا أفعل؟ فليس الحلاج عنده صوفياً فقط، لأنه شاعر كذلك، . . . والتجربة الصوفية والتجربة الفنية تنبعان من منبع واحد، وتلتقيان عند نفس الغاية، وهي العودة بالكون إلى صفاته وتسجانه بعد أن يتجوز طمار التجربة<sup>(٦٩)</sup>، اللهم أنه الشغل بثلاثة محاور هي الصديق مع النفس، والحرية، والعدالة، وقد اعتبر هذا سقطته على نحو ما فعل «الحلاج» في سقطته في مشهد البوح حتى تكلم عن علاقته الحميمة مع الله، ومع أن باعته كانت الزهوبيا نال، إلا أنه ارتكب السقطة التي أياحت دمه، بل وأباح لله دمه حين ألقى سر الصبغة، فكان أن سقطت مروءته أمام الله<sup>(٧٠)</sup>، وخير ما يدل على هذا قوله مرتدياً قناع الحلاج.

رحاك الله يا ولدي، فإذا تستثير شجاي

وتجملني أبوح بسر ما أعطى

ألا تعلم أن العشق يزر بين محبوين

هو التجوى التي إن أعلنت سقطت مروءتنا

لأننا حينها جاة لنا للحبوب بالوصل فنعمنا

دخلنا السر، أطمعنا وأشرتنا

وراقصنا، وأرقصنا، وطربنا وطربنا

وكوشطنا، وكاشطنا، ونوحنا وعاهدنا



فلما أقبل الصبح نفرقنا

نعاهدنا بأن أكنم حتى ألتوي في الشر

وهكذا كان عصره منشغلاً عن محاوره الثلاثة ، وما كان الشاعر يحب ذلك ، لهذا رأيناه يثنى ، ويشتت في مرحلة الأبن ، وهذا لم يثقف لمرحبه وهو يقول : كانت مسرحيتي مأساة الحلاج معبرة عن الإيمان العظيم الذي بقي لي ثباتاً لا تشوبه شائبة ، وهو الإيمان بالكلمة .

(١٢)

وهكذا يكون قد اقترب من معادلة الإشراق حين دخل عالم الفلسفة - وبخاصة عالم ماركس ، وسارتر ، وكامي ، وبيكيت - وحين اقترب من القرآن والإنجيل ، وانتهى إلى عالم التصوف ، حين تعرف بصفة خاصة على السراج الطوسي المعروف بطاويس الفقراء<sup>(٧٠)</sup> ، وعلى أبي القاسم عبدالكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية<sup>(٧١)</sup> ، وعلى أبي الدقاق ، وعمر بن الخطاب ، وسهل التستري ، ومن ثم كانت وقفته المشرفة عند الحسين بن منصور الحلاج ، وكانت لؤلؤة مسرحيته مأساة الحلاج<sup>(٧٢)</sup> ، بالإضافة إلى إطلالاته على نظرية «الفناء في التصوف» التي أنشأها أبو زيد البساطي ت ٢٦٥ ، وانتقها من بعده الحلاج ت ٣٣٠<sup>(٧٣)</sup> .

(١٣)

من كل هذا نرى أن هذا الاتجاه الذي زلج بين التصوف والفلسفة ، بدأ مشوهاً عند البعض ، وبخاصة حين كان يقتصر على «المطالعات» ، وحين كان يعتصم بما يسمى «تحركة الصوفية» ، ولكن شيئاً فشيئاً نرى أن الفلسفة قد اقتحمت هذا العالم بعنف ، وكان أن عمقت ، واقتربت اقتراباً جدياً من الإنسان ومهمته - حتى ولو كان هذا الاقتراب عن طريق الإسقاط - فقد قدم لنا هذا عالماً متوشحاً بجلالة صوفية مرهفة ومعاصرة ، وفي الوقت نفسه معبرة عن هموم الإنسانية في كل عصره ، فللمجاهدة الروحية موجودة دائماً ولدياً ، والصوفي والشاعر متداخلان في حالات لا تنتهي من التناغم والأنساق ، والإشراق مع النفس ومع الحياة ، مع ملاحظة تأكيد المطلق على حساب الإنسان ، واللامرئي على المرئي !

وأخيراً فنكتفي بالحديث عن الشعراء الذين أدخلناهم في الدائرة الإشراقية ، والتي لن نكتمل إلا بالحديث عن الشعراء الذين لم دور في هذا الجانب ، وفي مقدمتهم الشاعر «أدونيس» الذي يرى أن الشعر تجاوز للظاهر ، ومواجهة للحقيقة الباطنية في شيء ما أو في العالم كله ، فالشعر عنده كشف ورؤية ، واللغة عنده نوع من السحر ، ونوع من الإشارة<sup>(٧٤)</sup> . . . ولعل لنا عودة .

## الهوامش

- (١) طوق الحقامة: تحقيق حسن المصري (٢٨ ط)، القاهرة.
- (٢) الرمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، صلاله الصائغ، ط العراق، ص ٤٦.
- (٣) منها المؤمن بقدر نور الله، انظر الرعاية للمحاسبي، تحقيق د. عبدالحليم محمود، ص ١٩ ط. دار المعارف.
- (٤) دراسات في النص الشعري - عصر صدر الإسلام وبني أمية، د. حليم بدوي، ص ٤٩ ط. دار التراث.
- (٥) فقه الترمذي في سنه: حديث حسن صحيح قريب ٢٧٢/٢.
- (٦) طبقات ابن سعد، القسم الأول ٩١/١ ط ١.
- (٧) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، د. عبد الرحمن بدوي، ٢٢٨.
- (٨) نفسه ٢٢٤، وفي النص فكتاة من كل لفظة نيبا، فكل الألفاء من نوبه خلقت.
- (٩) هي القلم بن عربي، السفر ١٢، تحقيق د. عثمان يحيى، مراجعة د. إبراهيم مدكور، ص ٣٠٠ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب وتامل قوله في معراج الرسول:
- سرى في النور حتى كان الذي من القوسين في ظلي ظليل
- (١٠) نفسه ٢٧١ وما بعدها.
- (١١) ابن سبعين، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، المقدمة، ص ١١٠.
- (١٢) مقالات السهروردي، المقدمة.
- (١٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية، د. محمود قاسم، ط ١، ص ٦٥ ط. معهد الدراسات العربية، القاهرة، والسهروردي مؤسس الفكرة الإشراقية في الصوف، والميراث عندها أن الله نور الأنوار، ويصدر جميع الموجودات، بمعنى أن العالم قد صدر عن إشراق الله ونوره، ومن ثم كانت النفس من حقائق الوجود وتوحيدها يتبعها الاتحاد بالله، والاتصال بنور الأنوار، وعندئذ يتكشف لها الغيب في لحظة لم تنم - الصراع بين الدين والفلسفة، د. توفيق الطويل، ط ٣، ص ١٥١ - دار النهضة المصرية.
- (١٤) حكمة الإشراق للسهروردي، ص ٢٥٢ وما بعدها.
- (١٥) تحقيق المشرق، قديم دار أسئلة الدراسات الإسلامية بجامعة بلژيك، ص ٦٠، ٧.
- (١٦) الطويل، والامتلوك، د. زكي نجيب محمود، ص ٣٩١ ط. دار الشرق، القاهرة.
- (١٧) مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق يوسف أسعد داغر ٣٢٧، ٣٢٨، الأجزاء: أول الأمر ط ١ بيروت.
- (١٨) لافان: الآية ١٥.
- (١٩) جس رماني إسماعيلية لحسنه من الدعاة الإسماعيليين، تحقيق غاوي، ناصر، ص ١٢٦، عنوان المصروف، عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، ص ١١٠-١٢، هناك بعض الشيعة الذين يرون أن النور الحق في رمضان.
- (٢٠) دراسات في الفلسفة الإسلامية، د. محمود قاسم، ط ١، ص ٢١٧.
- (٢١) أصول الفلسفة الإشراقية، د. محمود علي أبو زيد، ص ٢٢ وما بعدها.
- (٢٢) في برحله الإشراقية الأخيرة فقط.
- (٢٣) هيكل النور السهروردي، ط ١، ص ٣٨، ٣٩، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.
- (٢٤) من السهروردي إلى الشيرازي، د. موسى الموسوي، ص ١٤٨.
- (٢٥) فلما ألقا نوري من شاطره الواد الأمين في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين، انقضى: آية ٣٠.
- (٢٦) الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زبوة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار الآية: آية ٣٨.
- (٢٧) دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص ٢١٩، ٢٢٠، د. محمود قاسم.
- (٢٨) يذكر محمد باقر الاستاذ في ص ١٠٤١، أن الغوامض العلمية الكشفت على قلبه بمثابة رماية، ويعتبر هذا الاكتشاف أيضاً مكتوباً للنص.
- (٢٩) الغزالي: الميراث كارتوفلو، ترجمة عادل زعبي.
- ومن أقوال ابن الفارض:
- إذا ما ألقيت المشرق فرحياً ولم يبق بالأنكشاف إشكال رية
- وطفت عند اكتشاف أن بوره اعتصمت لي أفعاله... بالذلة...
- (٣٠) حقيقة مشرب للأفغانين، ص ١٢٦-١٢٧.
- (٣١) نفسه، ص ٢٢٤.
- (٣٢) ابن الروادي، تحقيق د. عبد الأمير الأحسم، ص ١٣٣.
- (٣٣) كان وراء ذلك حلة الفلسفة مثل محققين، ويشور الحقيقة المنصورة بتحريم الاشتغال بالفلسفة، وحرق كتبها وتوقيق ابن الصلاح

## عالم الفكر

- بشريح الفلسفة والطقس، بالإضافة إلى عدده علماء كبرامتل: العراقي وابن تيمية وابن القيم الجوزية - الصراع بين الدين والفلسفة، د. توفيق الطويل، ص ١٢٩-١٣٢، ط ٣، دار النهضة المصرية.
- (٣٤) الاجتماعات الأدبية الحديثة، د.م. أكريس، ترجمة جوزيف طرابيشي، ص ١٣١ وما بعدها.
- (٣٥) علم النفس في حياته اليومية، د. محمد عثمان نجاتي، ص ٢٧١، ٢٧٢، الإصدار (ب-ب. ق)، ط ١، ترجمة عبدالكريم ناصف، وقد حدد المؤلف - بالتصريح - والتصغير والتجدي كوالاشراف، ص ١٦ ط. القاهرة.
- (٣٦) مشارق الأنوار، ص ٦ وما بعدها.
- (٣٧) الإنشاع والفوضى، ج ٢، ص ١٣٧، الصورة الأدبية فرد عليك وتأملا ذلك، والصورة العقلية تفصل إليك تفهيمك، فلأول يتهم وتقدر، وأدائية برطق والطاقة ط، دمشق.
- (٣٨) دورته ١/٨٣، تحقيق علي الحلج.
- (٣٩) الشؤون المعاصرة، د. محمد صبري ٢/١٨٣.
- (٤٠) الحلال: بوية ١٩٧٧، دراسة الدكتور عبد بنوني، ص ٦٩.
- (٤١) يقول لقد اخترعت الحروف الصوتية كوقا، عا A، سواه، وا B، بهاء، وا O، ز، قاء، وا L، عضراد، وا الإشراف، وهو القائل: عبرت عما لا ينيل للتصير عنه، يقول فتحي سعيد في الفصل في الحكاية، ص ١١٦ ط دار الآداب بيروت ولبي.
- بأهترج الكلمات، حروفاً صوتية.
- بأهترج الإقاع صوتي الإقاعات.
- بأرب الإشرافات.
- ... وهذا الدراسة التي كتبها د. عبدالحامد مكاري، عن كيفية الحروف في كتاب ثورة الشعر الحديث، ط. الهيئة المصرية للكتاب، واستغاني الألفاظ وبلاستها في بلد تكونها مسوقة بأين جني، وهذا محاولة جديدة تلك التعاليل في كتابه مقدمة لدرس لغة العرب، أما المحققون فيقولون من دلالة الصوت في سبيله.
- (٤٢) الفصحى النكية ص ١٢، ص ٤١٩، أريج الشعر، حنة القصيدة، ص ٤١٧، د. عاطف جوده نصر، ط. دار الأندلس، بيروت.
- (٤٣) دراسة، د. علي حشرى، في ديوان الأديب لعمود حسن إسماعيل، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤٤) نبر الخشبة، ص ٩٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤٥) الحلال: يونيو ١٩٧٧، ولك أن تتأمل الحشد النوراني في قصيدة زهرة البتة في ديوان ابن الحر والتي تبدأ بقوله:
- نحن ذات حوتك نور الصبح... وركت عليه سطور الظلام
- وفي حديثه عن النفس في قصيدة الحرامه المسحورة المنتشرة في مجلة العربي، ص ٩١٣ - أغسطس ١٩٧٩.
- يقترها لا أشهد الغيباء
- ولا أرى اللثام ولا الصفاء
- من أنت يا حبيبة المصير
- يا موجة الشك لمعن نور
- يا حلوة لطفيل بالليل
- يا سر كل السر في البستان
- لكنها في لحظات التكل
- شيء ولا شيء... تكلل الليل
- (٤٦) مقدمة ديوان معزولة لدروش متجول، لعل مصطفى الصبراني، ص ١٤، ط دار المصري ليبيا.
- (٤٧) أغاني إفريقيا، ص ١١٦، ط ١، القاهرة.
- (٤٨) معزولة لدروش متجول، ص ١٠.
- (٤٩) نفسه، ص ٢٩.
- (٥٠) معزولة لدروش متجول، ص ٦٦-٩١، والأولى كتبت عام ١٩٦٨، والثانية عام ١٩٦٦.
- (٥١) حيالي في الشعر، صلاح عبدالصبور، ط ١، ص ٨٠، ط بيروت.
- (٥٢) نفسه، ص ٨١.
- (٥٣) نفسه، ص ٨٢.
- (٥٤) أسلام القادوس القديم، ط ١، ص ٣٣، ٣٤.
- (٥٥) يقول د. كريس عوص في الشوة والآداب ص ١١٢: تعلم أنه يتخاطب الله لأنه ينهك إلى ذلك فيضع فمعة على صفيح المتعالم، هنا يقول د. أحمد عبدالحفي في شعر صلاح عبدالصبور الغنائي: ميلك للقصيدة يغني أن يكون المخاطب هي الحبة، ص ٩٢.
- (٥٦) حيالي في الشعر، ص ١٠٤.
- (٥٧) ولا يخفى هذا أن الشاعر يلخص من السيد المسيح، وأن الرجل الأول هو يربا الأسخريوطي الذي أرسله قسلة المسيح إليه في مقابل حبة من القمح ثم انتصر بعد فمكة، أما الرجل الثاني الذي أنكره ثم منى مكرراً باسمه فهو بطرس القبط ونجيه... إلخ - التكاوي والتكاوي: الواقعة والثاني يشارة الإنجيل في التحميم الأزهي - محمد بنوي ٢٤٨ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٥٨) أسلام القادوس القديم، ص ٩٧، والتوبة والآداب، ص ١٠١، ١٠٢.

## عالم الفكر

- (٥٩) الإبحار في المذاهب، ص ٤٤ .  
 (٦٠) أحلام القلوب القديمة، ص ٦٩ .  
 (٦١) حيان في الشعر، ص ١٨٨ .  
 (٦٢) نفسه، ص ٥٣ .  
 (٦٣) نفسه، ص ٨٧ .  
 (٦٤) أحلام القلوب القديمة ج ٦، ص ٧٤ .  
 (٦٥) الناس في بلادتي، ص ٤٢ .  
 (٦٦) أحلام القلوب القديمة، ص ٦٩ .  
 (٦٧) حيان في الشعر، ص ١٦ .  
 (٦٨) حيان في الشعر، ص ١١٩ .  
 (٦٩) نفسه، ١١٩ . بعض الصوفية لقوا حاشيتهم جراء عروجهم عن الاستمرار، وأصبحهم ينفي عن أسرار العرفان، ومن هنا بدأوا إلى التزمز .  
 الرمز الشعري عند الصوفية، د. حافظ جواد طاهر، ص ٤٠١، ط ٣، دار الأمل، بيروت .  
 (٧٠) من تصوف القرن الرابع الهجري .  
 (٧١) نجد في شعر صلاح الكثير من معلومات الفخري، مثال: الصبر والسكر، والسر والتجلي، والتجارية والمقايسة والمشاهدة، والبرائح والطرائع، والنبوءات والتكليم، والسر والبعث، والوارة، الرسالة الشعرية، تحريق، د. عبد الحليم محمود، ط ٥، مكتبة ابن التبريد، ط القاهرة .  
 (٧٢) من تصوف القرن الثالث الهجري الذي استلهم مع تصوف عصره، حين انصار بقائهم، وتحدث إليهم زيار حرفة الصوفية وث الأراء الإسلامية التي انتهت بصلابه، وقد أصبح بعد موته زليلاً وقديساً ومهولاً متفقاً عند بعض المسلمين . رسالة الخلاج، ط ١، ص ٢٠٨ ط بيروت .  
 (٧٣) الصبر بين الدين والفلسفة، د. توفيق الطويل، ص ١٥١، دار النهضة المصرية .  
 (٧٤) ربح الشعر، لوديس، ١٤، ط ٥، دار الفكر، بيروت . كما يؤكد على أن الشعر المسقة من حيث إنه محاولة اكتشاف أو معرفة الجلب الأثير من العالم، أو الوجه الآخر من الأشياء، فكل شعر عظيم لا يمكن من هذه الزاوية إلا أن يكون مبالغياً . نفسه، ص ١٧٤ .